طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

ترتيب المدارك وتقريب المسالك
لمعرفة أعلام مذهب مالك

تأليف

القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي

المتوفى سنة 544 هـ

الجزء الأول

تحقيق:

محمد بن تاويت الطنجي

الطبعة الثانية

1403 هـ - 1983م

تقـــديم

بسم الله الرحمان الرحيم

اولا عياض لما ذكر المغرب[1]

هذه هى الكلمة التى اختارتها الأمة المغربية للتعبير عن مكانة عياض في تاريخها .

وهى خلاصة لما تركته حياته الحميدة الحافلة ، وعلمُه الواسع ، وسلوكه الحميد — من آثار جميلة بعيدة الغَور في قلوب مواطنيه ·

وذكَره المؤرخون !

والمشارقة من أهل العلم والمغاربة ، سواءٌ فى اللَّهَج بحمده ، والإشادة بمآثره الخالدة .

وعِيَاض ! في الشرق ، وفي الغرب ، وفي كل بلد من بلاد الاسلام ، حقٌ أن يَخلُد ذكرُه ، وأن يُنشَر فضلُـه ؛ وحَرِىٌ أن تتسانَـد محافلُ العلم في كل بقاع الأرض المسامة على إجلاله وتقديره ·

والقاضي عياض — حين يحدّث ، وهو يعنى لِمَ يُحدّث ، عن بعض شيوخه ، أنه كان يقول : « ما لكم تأخذون العِلمَ عنا ، وتستفيـدون

(١) كلمة شاعت على ألسنة الجمـاهير في المغرب ، من غير أن تنسب لقائل معين .

منا ، ثم تذكروننا فلا تترحّمون علينا [2] » – يعتبر الاعتراف بفضل العالم المفيد شكراً للعلم ، ودَيْناً يجب على الخَلَف المستفيد أن يؤديه ؛ وهو للسّلف – قبلُ وبعد – لسان الصِّدْقِ في الآخِرين .

وقد قيل : « مَن ورّخ مؤمناً فكأنما أحياه » [3]

وأراد الله أن يكون الخلف وفيا لعياض ؛ فقد اختصه بالتاليف قوم وترجم له أقوام . [4]

وليس من غرضنا – في هذه الكلمة – أن نستقصي دقائق تاريخ القاضي عياض ، فإنا ، لو قصدنا إلى ذلك هنا ، لما وفينا به ؛ فحياته – من أي جانب نظرت إليها – غنية عامرة وهذه جهة ، والحديث عنها ، حديث – في الواقع – عن عصر من أدق عصور التاريخ في هذا البلد وتلك جهة ثانية .

وانما هدفنا أن نسجل معالم عامة لحياته وخاصة ما يتصل بالجانب الفكري منها ، بغية أن نقف على ما لعله أن يكون قد أثر في منهجه في البحث والتأليف ، وخاصّة في كتابه « ترتيب المدارك » الذي نقدم له بهذه الكلمات .

(2) ابن بشكوال ، الصلة 446 ، الغنية 128

(3) السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ 28 .

(4) ذكرنا لائحة تتضمن مراجع لترجمة القاضي عياض .

نسـبه :

نقل ابنه محمد ، [5] وأبو القاسم ابن الملجوم ، [6] كلاهما عن القاضي عياض أنه :

« عيَاض بن موسى بن عِياض بن عمرون بن موسى بن عِيَاض بن محمد ابن عَبد الله بن موسى بن عِياض اليَحْصُبِيّ » .

وهو نسب يرتفع — كما نرى — إلى يَحصُب بن مالك بن زيد ، [7] ويحصُب ،أخو ذى أصبَح الحارث بن مالك بن زيد الذي ينتهى إليه نسب الامام مالك بن أنس الأصبحى .

وهكذا يمت القاضى عياض إلى الامام مالك بصلتين:

صلة المذهب المالكى الذي دان به سكان المغرب وما يزالون وكان عياض من أبرز أعلامه وأشهرهم .

وصلة القربَى والانتساب إلى قبيلة حِمْيَر من عَرب اليمن ، ذات الصيت الذائع في التاريخ الاسلامى .

---

(5) في كتابه الذي عرف فيه بأبيه صحيفة 3 — 4 ، وانظر أزهار الرياض I/23 — 25 .

(6) ازهار الرياض I/24 .

(7) وقع في ازهار الرياض I/27 : « يحصب بن مدرك » ، وهو تصحيف . ونسب يحصب في جمهرة ابن حزم 408 — 409 ، ونهاية الارب للقلقشندي 249 ، 254 ؛ وأنظر تاج العروس (حصب — صبح).

ومن المحتمل ، ولا نذهب إلى أكثر من الاحتمال ، أن يكون لصلة القُربَى هذه — فوق ما للاسباب التى بسطها القاضى في مقدمة « ترتيب المدارك [8] » ، وفوق ما لصلة المذهب — أثرُها في توجيه القاضى عياض إلى العناية البالغة بحياة الامام ، وابرازها في إطار من الجلال والبهاء ، وفي إصراره على أن يُبعِد عنها كُلَّ ما من شأنه أن يَشوب نُصوعها ، ويخدَش في بهائها .

موطن سلفه :

وكان منزل أجداده بجهة بَسْطة [9] (Baza) التي تبعد 123 كيلو متراً نحو الشمال الشرقى من مدينة غَرْناطة ، ومنها انتقلوا إلى فاس ، ثم إلى مدينة سَبتة .

وذكر ابنه محمد أن سلَفه قد استقر بالقيروان ، غير أنه لم يدر هل كان استقرارهم بها قبل نزولهم بالأندلس أو بعدَه [10] .

ولم نعرف ، في عِداد أهل العلم ، أحداً من أجداده ، غير أن بيتهم كان من البيوتات النابهة بفاس وبسبتة ، وأن جَدَّه عَمرون الذى انتقل من فاس إلى سبتة حوالى سنة 373 هـ ، كان من أهل الخير ، حافظا للقرآن ، حج

---

(8) 4/I ، 6 — 22

(9) التعريف 4 ، المعجم لابن الابار 294 الوفيات I/497 ، الديباج 168 ، تاريخ الفكر الاندلسي 293 ، 397 .

وفي تاج العروس (حصب) ان اليحصبيين نزلوا بقلعة يحصب al-cala la Real على بعد ست مراحل في الشمال الغربي من مدينة غرناطة وأن هذه القلعة سميت بهم ، واليها ينسب القاضي عياض .

(10) التعريف 4 — 5 ، وانظر الديباج 168

إحدى عشرة مرة ، وغزا مع المنصور ابن أبي عامر كثيراً من الغزوات ، وأنه اشترى أرضاً بسبتة من ماله جعل جزءاً منها وقفا على المسلمين يدفنون فيه موتاهم ، وجزءاً بنى فيه مسجداً ، ودياراً جعلها حبساً على المسجد، وأنه لازم هذا المسجد للتعبد إلى أن مات سنة 397 هـ (11) .

وهي خلال كلها تمكن لنباهة الذكر ورفعة المكانة .

مولده :

وبسبتة - حسبما كتب القاضي بخطه (12) ، وعنه نقل ابنه محمد - ولد القاضي عياض ، في منتصف شعبان من سنة 476 هـ (13) .

وسبتة قاعدة من قواعد المغرب ، هيأها موقعها الجغرافي لأن تكون ملتقى العلماء ، سواء الواردون عليها من المشرق والمغرب ، بقصد العبور إلى الأندلس ، أم القادمون إليها من الأندلس إلى المغرب ، بقصد الرحلة أو الإقامة ، وأن تصبح - نتيجة لذلك - ملتقى لثقافات متنوعة متعددة .

وهكذا أنشأ العلماء المقيمون بسبتة ، والوافدون إليها ، مركزاً ثقافيا بها ، له أهميته ، وله ميزاته وخصائصه .

واتفقت مصادر ترجمة عياض على وصفه بالذكاء ، والفهم ، والحذق ،

---

(11) التعريف 5 ، وعنه ابن الخطيب في الاحاطة 182. أ ، والمقري في ازهار الرياض

(12) الصلة 447 ، المعجم لابن الابار 296.

(13) بغية الملتمس 425 ، المعجم 294 الصلة 447 ، الوفيات 497/1 ، الاحاطة 182 - ب .

والفِطنة ، والتّيَقُّظ ، والحرص على طلَب العلم .

وهي مؤهلات ، من شأنها أن ترفع صاحبها إلى مراتب عاليـة في العلـم والفضل .

وبهذه المواهب العقلية الممتازة ، وفي ذلك الجو العلمي الذي تهيأ له بمسقط رأسه سبتة ، بدأ عياض طلبَه للعلم .

وإذا كـانت الكتب التي يدرسها طالب العلم ، تتدخل ـ مثلما يؤثر الشيوخ ـ في تكوين شخصيته ، فإن ما قرأه عياض الطالب ، وقد حباه الله تلك المواهب العقلية ، من أمهات الكتب على اختلاف موضوعاتها ، في بلده سبتة ، دال على أن شخصيته العلمية قد اكتملت قبل أن يغادر بلده ، وأنه قد انتزع شهرته الخالدة على الزمن بسعيه ، دون أن يحابيه بها أحد .

ففي بلده حفظ القرآن بقراآته السبع ؛ برواية نافع ، وابن كثير ، وأبى عمرو بن العلاء ، وابن عامر ، أخذ هذه الروايات بطرقها المختلفة المعروفة ـ عن عبد الله بن إدريس بن سهل المقريء (المتوفي سنة 515 هـ) [14] ، وبرواية حمزة بن حبيب الزيات ، عن عبد الله بن محمد النّفـزِي (المتوفي سنة 538 هـ) [15].

وقرأ اللغة العربية ، متنَها وأدبها ، في كتاب الفصيح لأبى العباس ثعلب ، وكتاب الأمالى لأبى على القالى ، والكامل لأبى العباس محمد بن

---

(14) الغنية 149 ، وانظر 173 .

(15) الغنية 148 ، وانظر 43 . 44 .

يزيد المبرد ، وأدب الكتاب لأبى محمد ابن قُتَيْبة [16] .

ودرس قواعدَها في كتاب الجُملَ للزّجّاجي ، والواضح لأبى بكر الزُّبَيري ، والكافي لابن النّحّاس ، والمقْتَضَب للمبّرد ، والإيضاح لأبى على الفارِسى ، [17] وشرح الجُمَل لابن فَضَال [18] .

أما أصول الفقه ، وأصول الدين وعلم الكلام [19] على مذهب أبى الحسن الأشعري ، والجدل والمناظرة ، [20] فقرأ أصول الدين على قاضي سبتة عبد الله بن محمد بن ابراهيم بن قاسم اللخمى (المتوفى سنة 458 هـ) ، [21] وقرأ رسالة ابن أبى زيد القيرواني [22] على محمد بن عيسى التميمي ؛ وصحب عبد الغالب بن يوسف السالمي (المتوفي سنة 516 هـ) المتكلم على مذهب أهل السنة من الأشعرية ، مدة إقامته بسبتة ، وناوله كثيراً من مجموعاته [23] ، وقرأ على يوسف بن موسى الكلبي، المتكلم على مذهب الأشعرية،أرجوزته

---

(15) الغنية 134 – 135 ، وانظر 43 ، 67.

(17) الغنيــة 135 .

(18) الغــنية 160 .

(19) جاء في « التعريف » صحيفــة 6 ان القاضي عياضا كان متكلما أصوليا ، وكــان لا يرى الكــلام في ذلك الا عند نازلة . وعلم الكلام ، منذ نشأته ، يعني الحجاج عــن العقيدة والمناظرة عليها ، ثم اشتهر – بين أهل السنة – استعماله في معنى الحجاج عن العقيدة السنية بالادلة البرهانية العقلية ، والرد على المخــالفين لهم فيها .
فالمحاجة والمناظرة جزء من مفهوم علم الكــلام .

(20) أما « علم الجدل والمناظرة » ، فيراد به الجدل في مســائل الفقه تــارة ، وفي مســائل الاعتقاد تارة أخرى ، ومهما كان فــهو صناعــة الجدل .

(21) الغنيــة 146 .

(22) الغنية 22 .

(23) الغنيــة 166 .

التي ألفها في الاعتقادات ،[24] كما قرأ كتاب المنهاج في الجدل والمناظرة لأبى الوليد الباجي[25] .

واحتجاج عياض المتكرر في كتاب الشفا بآراء أبى الحسن الأشعري ،[26] والقاضي أبى بكر الباقلانى،[27] وأبى بكر ابن فورك،[28] وأبى المعالى إمام الحرمين الجوينى،[29] يثبت كلُّ ذلك صلتَهُ الوثيقة بمذهب الأشعرية وبكتبهم ، وقراءتَه لمؤلفاتهم في الاعتقاد ،[30] ووصفُه للباقلاني. وأبى بكر ابن فورك بقوله : « من أئمتنا[31] » ، دال على أنه أشعري المذهب.

ومناقشاته العميقة لآراء المعتزلة ،[32] والفرق الاعتقادية الاسلامية ،على اختلاف مذاهبها ،[33] والفلاسفة ،[34] والصوفية،[35] والخوارج[36] ـ تطلع الدارس لعياض على معرفته الواسعة بالمذاهب الاعتقادية وآراء أصحابها .

وصلة القاضي عياض بعلم الكلام وما يتبعه من جدَل ومناظرة ، ومعرفته بدقائق آراء المخالفين لأهل السنة فيه ، تصل بنا إلى أن المدرسة التي أخرجت القاضي عياضاً وشيوخَه الذين تعلم عليهم الكلام وأصول الدين ، وكثير

---

(24) الغنية 215 .

(25) الغنية 160 .

(26) الشفا 277/2 .

(27) الشفا 215/1، 263/2، 267، 276 .

(28) الشفا 216/1 ، 156/2 .

(29) الشفا 205/1 ، 311 ، 264/2 .

(30) الغنية 166، 215.

(31) الشفا 216/1 .

(32) الشفا 266/2، 267، 278، 279 .

(33) الشفا 268/2، 269.

(34) الشفا 269/2 .

(35) الشفا 269/2 .

(36) الشفا 271/2 .

من العلماء المغاربة الذين اشتغلوا بعلم الكلام واشتهروا به ، وترجم لهم في « ترتيب المدارك » .

نقول : هذه المدرسة كانت على علم تام بالجدل والمناظرة وأصول الدين والكلام على مذهب أبي الحسن الأشعري ، وأن كتب الأشاعرة في علم الكلام كانت معروفة بين رجالها يتدارسونها في كافة أنحاء المغرب .

ومن هنا نصل إلى عدم صحة ما حيك حول مهدي الموحدين ، من أن اعلماء المغرب في عهد المرابطين ، لم تكن لهم معرفة بالجدل والنظر ، وأنهم ـ لذلك لم يستطيعوا أن يثبتوا له في مناظراته ، وأن التجسيم كان غالبا عليهم في الاعتقاد ، فجاء ابن تومرت بعقيدة التوحيد ، ونشرها ، وسمى أتباعه لموحدين ، الى آخر ما قيل وكُرّر .[37]

إنه خُدعة سياسة أذاعها ابن تومرت وأنصاره لتوطيد نفوذهم في نفوس الجماهير ، واغتر بها المؤرخون ، ومن العجيب أن يكون ابن خلدون الواعي من ضحاياها .

وبسبتة أيضا عن أعلامها ومحدثيها أخذ علمَ الحديث ، متنَه وغريبَه ورجالَه ومصطلحَه .

فقرأ الموطأ للإمام مالك ، ومسند الموطأ لأبي القاسم الجوهري ، وصحيح البخاري بروايتي الفِربْري والنَّسَفي ، وصحيح مسلم ، وسنن النسائي ، وشرح غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ، واصلاح الغلط على

(37) ابن خلدون ، العبر 6/226 ـ 229 ، 6/266 .

أبى عبيد لأبى محمد ابن قُتَيبة ، وغريب الحديث لأبى سليمان الخطابي، وعلوم الحديث للحاكم ، وكتاب الطبقات لمُسلم الحجّاج صاحب الصحيح ، وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي ، وكتاب الطبقات له ، وكتاب التقصّى لابن‌عبد البر ، [38] والمؤتلف والمختلف للدار قطنى ، [39] والمؤتنف في تكملة المؤتلف والمختلف للخطيب البغدادي، [40] ومشكل الحديث لابن فورك ، [41] والاكمال لابن ماكولا [42].

أما الفقه المالكي ، فدرس رسالة ابن أبى زيد، [43] والمدونة ، [44] وتأليفاً في الأيمان اللازمة للقاضي أبى بكر ابن العربي المعافرى ، قرأه عليه بسبتة عند مروره بها . [45]

وقرأ أصول الفقه على محمَد بن داود بن عطية القلعي .

رحلته

بهذا المحصول العلميّ الرّائع رَحل عياض الى الأندلس .

وقد عنى مؤرخوه بتحديد مبدأ رحلته ومدتها ، [46] وهي عناية محمودة لها فوائدها ، ولاكن مبدأ الرحلة ومدتها لا يهمنا ولا يفيدنا الفائدة التي

---

(38) الغنية 2 ــ 22، 146، 190، 191 .

(39) الغنية 51 ــ 56 .

(40) الغنية 51 ــ 56، 64 .

(41) الغنية 135 .

(42) الغنية 56 .

(43) الغنية 56 .

(44) الغنية 22.

(45) الغنية 19، 119، 146، 40 ــ 42 .

(46) في التعريف 9 ــ 10 وإزهار الرياض 3/8 ــ 10 : أنه خرج من سبتة سنة 507 هـ. وعاد من رحلته سنة 508 هـ .

تعود علينا من معرفة ما فعله القاضي في رحلته ، وما خلفته هذه الرحلة من آثار في معلوماته وفي تفكيره .

والرحلة في طلب العلم ، تعنى - في ميدان التربية العلمية وتقويم أسس التفكير في الإسلام - أمرين :

الأول :

التأكد من سلامة المنهج النقلي ومن كماله ، ويتطلب ذلك تصحيح المتون المروية ، والبحث عن أصولها ، ووصل أسانيدها بأصحابها ، والبحث عن أعلى هذه الأسانيد وأقوَمها وأصحّها .

فهذه المادة المروية ، إذا لم تثبُت بصورة صحيحة نسبتها إلى أصحابها، لاتصلح أن تتخذ أساسا للبحث والدرس وبناء أحكام عليها ، سواءٌ كانت هذه الأحكام دينية أو علمية أو أدبية .

والحرص على إكمال المنهج النقلي وسلامته ، واضح في عناية القاضي البالغة بالتوسع في الرواية والقراءة، فنراه يقرأ كتبا جديدة لم يقرأها بلده ،[47] وبمُقَابلة كتبه [48] بالأصول الصحيحة ، والبحث عن أصول العلماء الخطية المسنَدة،[49] والتنصيص على الأصح والأفضل من رواياتها إلى أصحابها ، إن تعددت الطرق والروايات ، [50] وبالنّص - كذلك - على أنه قابل أو صَحَّح .

والأمر الثاني :

---

(47) الغنية 142، 155 .

(48) الغنية 15، 26، 27، 172 .

(49) الغنية 11 .

(50) الغنية 142، 155 .

تصحيح منهج التفكير ، وإقامة أسسه على قواعد ثابتة . وتقول مصادر ترجمته : إنه عُني في رحلته بلقاءِ الشيوخ ، [51] ولم يكن غرض عياض الأساسي من رحلته أن يرى وجوه الشيوخ ، وإنما كان يعنى — بعد أن سَلِم له المنهج النقلى — أن يقابل أفكارهم ؛ فيزنها بما تعلّمه فى بلده من أفكار .

وقديما قيل : « إذا أردت أن تعرف مقدار شيخك فجالس غيره » .

ولقاء الشيوخ هو الذي أتاح لعياض أن يرصُد عن كَثَب مناهجهم في التفكير ، ويرقُبَ كيف يتناولون المسائل بالدرس والبحث ، يردّون منها ما يردون ، ويقبلون ما يقبلون ، فينقله ما شاهَد وما فَهِم الى ما تعلّمه عن علماءِ بلده من أسس ومناهج ، يقارن بينها ويُفاضِل ، فيُبقِي في ذهنه — بعد الموازنة والعرض على ميزان النقد — ما يصلح أن يبقى ، ويَنفى ما لا يثبت للنقد .

وبعملية الاختبار والمفاضلة . والتنقيح والتلقيح هذه ، تَمّ له بناءُ الجهاز النقدي ، وتكاملت له أصول التفكير على أساس من المقارنة والاختيار .

شهادة أهل العلم له

وعرف مكانه عند أشياخه أثناء رحلته وقبل أن يعود إلى وطنه ، وقد أثِرت عنهم كلماتٌ تشير إلى فراستهم فيه ، وتقديرهم له ، واعترافهم بفضله

---

(51) الصلة 446 ، الوفيات 497/1 .

وعلمه .

قال له أستاذه أبو عبد الله ابن حَمْدِين ، وقتَ رحلته : « وَحقِّي يا أَبا الفضل إن كنت تركت بالمغرب مثلك [52] » .

وأراد الرحلة إلى بعض الأشياخ بالأندلس للأخذ عنه ، فقال له الوزير أبو الحسين ابن سراج : « لهو أحوج إليك منك إليه [53] » .

وقال أبو محمد ابن أبى جعفر : « ما وصل الينا من المغرب أنبل من عياض [54] » .

ولقيه بسبتة الوزير الكاتب الشاعر عبد المجيد ابن عَبْدُون (المتوفى سنة 527 هـ) ، فأقسم له أنه ما قصد سَبتة إلا للُقياه [55] » .

وفي رحلته كتب عنه أبو عامر محمد بن أحمد بن إسماعيل الطليطلى أشياء من حديثه [56] .

وعاد عياض من رحلته ، قبساً من النور يُضىء ، ومَعينا عذْبا فياضاً من العلم لا يلحقه النُّضوب ، وصوتاً عاليا للحق ينادي — مُرشداً ، وحَاكِماً — فيُسْمِع النداء ، وطاقةً هائلةً من الإيمان والثبات والخُلق .

وإلى هذا جميعاً إحساسٌ واع بنفسه وببلده ، [57] وبالمكانة التي تهيأت

(52، 53، 54) التعريف صحيفة 121 .

(55) الغنيـة 167 .

(56) الغنيـة 59 .

(57) من مظاهر هذا الاحساس عنايته بأخبار سبتة ، وتأليفه كتاب « العيون الستة » . والعناية بتاريخ المدن المغربية قديم ؛ فقد ألف محمد بن يوسف التاريخي الوراق أخبار تاهرت ، والبصرة ، وسجلماسه ونكور ، وغيرها .

له ، بما ورثه عن سلفه ، وبما أفاده بسعيه ، وتقدير للمسؤوليات الثقيلة التي تفرضها عليه تقاليد هذه المكانة ، من إرشاد وهداية ، وتوجيه وتنوير ، وحماية إن كانت السلامة في الكرامة الإنسانية وفى المقدّسات لا تحفظ إلا بالحماية .

وفتحت له بلادُه قلبها ، فأحبّته وأكبرنه ، وأسنَدت إليه قيادها ، فكان عياض في جميع ذلك الرائد الأمين الذى لا يَكْذب أهله .

حدّث ابنه في « التعريف » ، وابن صَعْد في « النجم الثاقب »، وعنه الإفراني في « دُرَر الحجال في سَبعة رجال » في السمط الثاني منه : أن القاضي عياضاً لما ولى قضاء بلده كانت الخاصة والعامّة على غاية من محبته وإجلالـه وإكباره ، وكان له من الهيبة والجلالة عند الأمراء والولاة ، ما جعلهم يقبلون قوله ، حين يطالبهم بأداء حقٍ من حقوق الرعية ، ويتنافسون في قضاء حقه والقيام بواجبه .

وحدثوا عن سيرة القاضي في قومه، فقالوا : انه كان صلباً في الحق لا تأخذه فيه لومة لائم ، محباً في طلبة العلم محرضالهم على طلبه ، [58] كثير التواضع ، يقبل على المساكين والفقراء، فيسألهم عن أحوالهم ويكثر الصدقة عليهم ، [59] ويباشر الناس بالأخلاق الحسنة ، والجانب الليّن ، ويؤثرهم بما

(58، 59) التعريف 7 .

يجد ؛ أنفق في ذلك أكثر ما ورثه عن أبيه ، وباع فيه رباعه بستة وأملاكه، ومات مديناً بخمسمائة دينار [60] .

أما صلة القاضي عياض بربّه في عبادته ، فكان متين الدين ، مجتهداً ، كثير الصوم ، قوام الليل ، تالياً لجزء من كتاب الله — عزوجل — في الجزء الأخير من الليل ، لم يتركه — ما قدَر على تلاوته — في أيّة حالَة ، ملتزما لحدود الشريعة ، سُنّياً في عقيدته شديدَ التمسُّك بها إلى حَد التعصب [61]

ولم يصرفه واجبُه الديني والاجتماعي عن الواجب العلّمي المقدسّ ؛ فكان دائمة الصّلة بعلِمه ، لا يفارق كُتُبَه ، يقرأ ، ويدرّس ، ويَبحث ويؤلّف .

❀ ❀ ❀

وتطوّرت الأحداث ، وأرغمته على أن يخوض غمارها ، وكانت هناك مقرّرات سنية عَقَدِيةٌ لا سبيل إلى التخلي عنها ، آمن بها أهلُ هذا المغرب، ومنهم علماؤُه الذين جاهدوا في سبيل المحافظة عليها بكلّ ما كان لديهم من الوسائل .

والعقيدةُ السُّنية تجيء في طليعة هذه المقررات ، وهي تقرّر — فيما تُقرّر — أن لا عِصمةَ لأحدٍ من الناس غير الأنبياء .

---

(60) التعريف 128 .

(61) شذرات الذهب 139/4 .

أضف إلى قضية العصمة،ما كانت تستلزمه من مظاهر التشيع .

وهناك الموقف الحذر أو العدائي الذى اتفق عليه أعلام المغرب ، أو كادوا ، تِجاه مباحث واتجاهات في كتاب « إحياء العلوم » للغزالى .

ويمكن حصر هذه المباحث التي رفضتها الأوساط الفكرية في المغرب في نُقطتيْن :

الأولى : ذلك الموقف السلبي الخطير الذي يقفه الغزالى في كتاب الإحياء وغيره — من الاشتغال بالعلوم الاسلامية ، باستثناء التصوف.

والثانية : ما عرض للبحث فيه من « علوم المكاشفة » ،.وما بناه عليه من نتائج وأحكام .

وآمن عياض بما آمن به ، أهل السنة في المغرب ، وكان شديد التمسك بما آمن به ، وقرأ على محمد بن عبد العزيز التغلبي (المتوفى سنة 508 هـ) ردوده على الغزالى [62] وأغلب الظن — ولا شيء يمنع من — أنه كان على علم بموقف المازري شيخه من كتاب « إحياء العلوم » للغزالى .

فكان لعياض — من هذا جميعه — رأيه في كتب الغزالى وآرائه، مماثلا لما رآه شيوخه ومُعاصروه فيها ؛ كان عياض يرى أن الغزالى لو اختصر الإحياء واقتصر فيه على العلم الخالص ، وهذه عبارته ، لكان كتابا مفيدا [63] وغيرُ الخالص من العلم في كتاب الإحياء — فيما يعنى عياض —

---

(62) الغـنيـة 25 .

(63) التعريـف 121 .

هو « علم المكاشفة » .

وحكى ابن العماد الحنبلي ،[64] والشّعراني[65] أن عياضاً كان يرى أن كتاب الإحياء يجب أن يُحْرق ، وليسَ غريباً ما حكياه عنه ؛ فلعياض في كتاب الشفا[66] حكم على أبي حامد الغزالي — رحمهما الله — في غاية القَسْوة .

وكان لعياض كذلك اعتقادُه في العِصْمة التي وَصف المهدي بها نفسه .

وجاء مَهديّ الموحّدين فصَدَم أهلَ المغرب في أقدَس ما لديهم وهي عقيدتهم السنية ، وسماهم مجسّمين كافرين ، وقاتلهم قتالَ كُفر ، وحصَر التوحيد في أصحابه وأتباعه[67] .

وأقام حركته على دعامتين :

عصمة الامام ، وهو كان الإمام .

وعلمه بالمغيبات ، وقد استفاده من كتاب الجَفْر الذي يتضمّن علوم أهل البيت .

وعصمةُ الإمام ، عند الامامية ، وعنهم ينقل ابن تومرت : تَعني أن الامام لا يجوز أن تصدُر عنه مَعصية صغيرة ، ولا يجوز أن يحصل منه سَهو في الدين ، ولا يجوز أن ينسى شيئا من الاحكام[68] .

ومن كرامة الامام عندهم أن يعرفَ ضمائر الناس وأن يعرف ما يكون

(64) الشذرات 139/4 .

(65) طبقات الشعراني 15/1 .

(66) 267/2 .

(67) ابن خلدون ، العبر 226/6، 227، 228، 229، 266/6 ، وابن زيدان ، اعلام الناس 87/1، 88 .

(68) أوائل المقالات 36 .

قبل كونه [69] .

وموقف العقيدة السنية من عِصمة الائمة أنها لا تقبل عِصمة أحد من الناس غير الانبياء ، كما أنها ترفض وصف الائمة بأنهم يعلمون الغيب وما تكنّه ضمائر الناس ، ويخفيه الغد .

وتعرضُ الغزالى لعلوم المكاشفة ، وإفاضته فيها ، واعتمادُه عليها — [70] من الاسباب التي حدَت بالعلماء في المغرب أَن يقفوا من كتاب « الاحياء » موقفهم العدائى المعروف ، ومن أجل هذا أيضا كان موقُف عياض ورأيه ، الذي رأى ، في الغزالى وَفي كتبه .

ومن السهل — بعد هذا الذي أَشرُت اليه — أن يفهم الدارس لماذا قاوم المغاربة في كل مكان دعوة الموحدين ، ثم لماذا ثارت سبتة وكررت العصيان، بزعامة عياض في وجه نظام الموحدين .

والموضوع لا يسمح لى بتفصيل القول في هذا هنا ، ولاكنى أريد أن أقول : إن عياضا لم يتنازل قط عن عقيدته السّنية ، وما كان الظنُ به أن يفعل ، وإنّ الموحدين لم يسامحوه قطّ ، ولذلك غرّبوه عن بلده، فجزِع — رحمه الله — لفراقها ، وكان يقول لمواطنيه عند وداعهم بسبتة : « جعلنى الله فداءكم » ويبكى ، [71] ونغّصوا عليه أواخر حياته ، إلى أن لقِى ربَّه

(69) اوائل المقالات 37 .

(70) فصلنا القول عن هذا في مقدمتنا لشفاء السائل لابن خلدون .

(71) التعريف 131 .

في سابع جمادى الاخيرة ، أو في رمضان من سنة 544 ه .

وانطلقت في الفضاء بعده الرؤي والمنامات والقصص والحكايات، له،وعليه.

وما أكثر ما تحاك الأقاصيص حول النابهين من الناس بعد أن يفارقوا هذه الحياة الدنيا !

وما أسهل أن يقول فيها القائلون: إنها خرافات لا تثبت للنقد و يبعدوها عن مادة التاريخ !

وهو صنيع خاطيء تسخر منه الخبرة بنفسيات الشعوب والأمم .

إن هذه الجنود المجنّدة من الحكايات ، وهو التعبير الذي اختاره لها أسلافنا ، هي الأسلوب ذو المنطق الخاص الذي يبعد الزمان والمكان، وكثيراً من مقررات وقواعد الأحاديث الرسمية من حسابه ، وهو الطريقة التي تختارها الشعوب للتعبير عن إحساسها نحو من تريد أن لا تنساهم من الناس ، ولتسجيل رأيها فيهم .

ففي رؤاها وأحلامها وأقاصيصها وأسجاعها وأمثالها ، وفقرها القصيرة اللتي تشبه الامثال ، وتطير كالسهام — في هذه الصور جميعا تصوغ أفكارها، وتسكب حبها أو كراهيتها لأولائك الذين تستودعهم التراب .

ولأمرٍ ما قالوا : « لسانُ الخلق أقلام الحق » .

والذى دفنوا عياضا ـ رحمه الله ـ فئتان من الناس: حكّام الموحّدين وسادتهم ، وأمة المغرب ، وشعور الفئتين نحوه مختلف متباعد .

أما الموحّدون فحكت أقاصيصهم أن الغزالى بلغه رأيُ عياض في كتبه ،

فدعا عليه ، فمات فجأة في الحمام يوم الدُّعاء عليه [72] .

وقالت أيضا : إن المهدى هو الذي أمر بقتله بعد أن ادّعى عليه أهل بلده بأنه يهودي ، لأنه كان لا يخرج يوم السبت ... فقتلَه المهدي لأجل دعوة الغزالى [73] .

وأما الأمة المغربية ، فكانت أصابعُها تشير إلى الموحدين تتّهمهم وتقول : « سُمّ ابن العربى ، وخُنِق اليحصبي [74] . وتقول ، وهى تعدُّه بقولها هذا في الشهداء : « سمه يهودى » [75].

ورُؤَاها المتعلّقة بعياض ، والتي تربطها ببلده حيث نشأ ودرج وأفاد وأرشد ، وبالجزيرة الخضراء حيث أزال عن أهلها مظالم بعض حكامها، [76] ومراكش حيث قدّم نفسه فداءً لمواطنيه ، — هذه الرُّؤَى [77] كانت تشير جميعا إلى أنه في الجنة منعّما مكرّماً ، جزاءً لما قدمه من أعمال الخير يوم كان حيّاً يَسْعَى ، وأجابت أمته عن كلّ ما من شأنه أن يمس ذكراه العاطرة بكلمتها التي رددّتها الشفاه أعواما تتلوها أعوام : لو لا عياض لما ذُكر المغرب .

---

(72) طبقات الشعراني 15/1 .

(73) فهرس الفهارس 185/2 ،

(74) المرقبة العليا 95 .

(75) الديباج 172 ،

(76) التعريف 131 .

(77) التعريف 129 ـ 131 .

تـــآليفـه:

وعياض ، الى هذه الحياة الحافلة ، مؤلف مجيد مكثر أثنى العلماء على مؤلفاته ، واستفادوا منها ، وعنوا بها .

وقد بلغت المؤلفات المنسوبة اليه الثلاثين أوتزيد ،والذى وصل الينا منها قليل ، وقد حرصنا على احصائها وذكر أسمائها جميعا — مرتبة على حروف المعجم — رجاء أن يفيد ذكرها في الحصول على مالم يعرف وجوده منها .

وهي :

1 – الاجوبة المحبرة عن المسائل المتخيرة .

وهو من الكتب التى لم يكملها القاضي عياض،وذكر ابنه في التعريف 133 — 134 : أنه وجد منه يسيرا فضمه الى ما وجده في بطائق أبيه ، أوعند أصحابه ، من معان شاذة في انواع شتى سئل عنها — رحمة الله عليه — فأجاب عنها .

جمع ذلك كله في جزء ، وقد ذكره أيضا في الاحاطة 183 ـ ا ، وأزهار الرياض 2 : 239خ (المخطوط) ، وكشف الظنون 1 : 11 .

2 – أجوبته فيما نزل في أيام قضائه من نوازل الاحكام . ✗

لم يكمله أيضا ، واختلفت المراجع في تقدير ماترك منه ، ففى الاحاطة 183 ـ ا ، والتعريف 134 أنه جزء ، وفي أزهار الرياض 2 : 239 خ أنه جزآن .

3 – أجوبة القرطبيين. قال ابنه : رأيت هذه الترجمة بخطه ، ولم أجدها عنده مبيضة . غير أني وجدتها في بطائق فجمعتها مع اجوبة غيرهم .

ذكره في التعريف 134 ، الاحاطة 183 ـ ا ، ازهار الرياض 2 : 239 خ .

4 – أخبار القرطبيين ، ذكره في كشف الظنون 1 : 28 ، وفي هدية العارفين 1 : 805 ، وتاريخ الفكر الاندلسى 283 وقال : وله تاريخ لعلماء قرطبة يسمى أخبار القرطبيين .

وأخشى أن يكون « أجوبة القرطبيين » السابق ذكره .

5 – اختصار شرف المصطفى ، « وشرف المصطفى » اسم كتاب لابى سعد عبد الملك بن محمد الواعظ النيسابورى الخركوشي المتوفى سنة 406 هـ ، وهو ثمان مجلدات ، ويسمى ايضا « شرف النبوة » .

وقد اختصره القاضي عياض ، حدث به عنه ابن خير إجازة ومشافهة واذنا ، وذكره في فهرست ما رواه عن شيوخه 289 ، 497 ، وذكره ايضا صاحب كشف الظنون ، 2 : 1045 .

وكأن القاضي كان يمهد لتأليف كتابه الشفا ، فاستطال كتاب شرف المصطفى ، فلخصه ليسهل رجوعه اليه ، واستفادته منه .

6 – الاعلام بحدود قواعد الاسلام ذكره ابنه في التعريف 133 ، والاحاطة 183 ـ ا وكشف الظنون 1 : 127 ، وهدية العارفين 1 : 805 . وقد طبعته وزارة الشؤون الاسلامية في سلسلة مطبوعاتها .

7 إكمال المعلم بفوائد مسلم ، وهو شرح على صحيح الامام مسلم بن الحجاج ، كمل به شرح أبى عبد الله محمد بن على المازرى المسمى بالمعلم بفوائد مسلم .

ذكره القاضي عياض في أول مشارق الانوار 1 : 7 ، وابن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه 196 ، 494 ، ورواه عن مؤلفه ، وابنه في التعريف 132 ، والاحاطة 183 ـ ا ، وقدره كابنه بتسعة وعشرين جزءا . وذكره في كشف الظنون ، 1 : 145 ، 1 : 557 ، والوفيات 1 : 496 ، وهدية العارفين 1 : 805 . وهو موجود بالخزانة العامة .

8 – الالماع في ضبط الرواية وتقييد السماع . ذكره ابنه في التعريف 133 ، والضبي في بغية الملتمس 425 ، والاحاطة 183 ـ ا ، كشف الظنون 1 : 158 ، هدية العارفين 1 : 805 ، تاريخ الفكر الاندلسي 397 .

وهو من الكتب التى كثر إعتماد المتكلمين في مصطلح الحديث عليه ، وقد

وصلنا؛ ففي كل من مكتبة الاسكوريال ، وأيا صوفيا نسخة منه .

9 – بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد ، وهو أوفى شروح هذا الحديث ، وأغزرها مادة . ذكره ابنه في التعريف 133 ، والذهبي في تذكرة الحفاظ 4 : 97 ، وابن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه ، و رواه عن مؤلفه 197 ، 478 ، وابن خلكان 1 : 496 ، كشف الظنون 1 : 248، هدية العارفين 1 : 805 ، وفي الخزانة العامة ، وبرلين نسخ منه . طبع

10 – تاريخ المرابطين ، انتهى فيه الى سنة 540 هـ . ذكره ابن خاتمة في « مزية المرية » . ازهار الرياض 2 : 239 خ ، وانظر :

الجامع في التاريخ .

11 – ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك – يأتي الحديث عنه.

12 – التنبيهات المستنبطة ، على الكتب المدونة والمختلطة. قدره ابنه ، وعنه الاحاطة بعشرة أجزاء .

وكان عليه المعول في حل ألفاظ المدونة وحل مشكلاتها ، وتحرير رواياتها ، وتسمية رواتها ، ويرجع السبب في ذلك إلى انه جمع بين شرح المعاني وايضاحها، وضبط الالفاظ، وذكر من رواها من الشيوخ والحفظ. ذكره ابنه في التعريف 132 والوفيات 1 : 496 ، وعنه الذهبي في تذكرة الحفاظ 4 : 97 ، والاحاطة 183 – ا ، ازهار الرياض 3 : 21 ، كشف الظنون 1 : 493 ، 2 : 1644 ، هدية العارفين 1 : 805 . وفي الخزانة العامة نسخة منه .

13 – الجامع في التاريخ ، يقول القاضي عياض في ترجمة عبد الله بن ياسين القائم بدعوة المرابطين : « وقد بسطنا أخباره في كتاب التاريخ » ، وذكر تلميذ عياض محمد بن حمادة البرنسي السبتي، وعنه الذهبي في تذكرة الحفاظ 4 97 بعنوان « جامع التاريخ » ، والمقري في أزهار الرياض 2 : 239 خ : انه تاريخ المرابطين، انتهى

فيه الى سنة 540 هـ ، وانه كتاب أربى على جميع المؤلفات ، فيه اخبار الملوك بالاندلس والمغرب ، منذ دخول الاسلام اليهما ، واستوعب أخبار سبتة وقطانها وفقهاءها ، وجميع ما جرى من الامور فيها ، واستوفى أخبار الدولة الحسنية ، وذكره في كشف الظنون 1 : 538 تحت عنوان « جامع التاريخ »، وهدية العارفين 1 : 805 ولم يضيفا شيئا زائدا على هذا العنوان ، وانظر :

العيون الستة ، والفنون الستة .

14 — كتاب « خطبه » ، في سفر . ذكره ابنه في التعريف 133 ، وذكروا في ترجمة القاضي أنه كان لايخطب الامن انشائه .

15 — سر السراة ، في آداب القضاة . قال ابنه (التعريف 134) : رأيت أيضا هذه الترجمة بخطه ، ولم اجد من هذا الكتاب شيئا ، ولا وقفت له على خبر .وذكره في الاحاطة 183 — ا ، وأزهار الرياض 2 : 238 خ وقال : ومما تركه في المبيضة سر السراة الخ . وهو كلام لامعنى له بعد قول ابنه السابق

16 — كتاب سؤالات وترسيل .

انظر : غنية الطالب

17 — السيف المسلول ، على من سب أصحاب الرسول . خ

ذكره كشف الظنون 2 : 1018 ، وهدية العارفين 1 : 805 .

18 — الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وسماه الذهبى : الشفا في شرف المصطفى ؛ وهو أشهر من ان يعرف . أقرأه القاضي في حياته واجاز به .

ذكره ابنه 132 ، وعنه الاحاطة 183 — ا ، وقدراه بستة اجزاء ، وأزهار الرياض 2 : 238 خ ، وتذكرة الحفاظ 4 : 97 ، كشف الظنون 2 : 1052 — 1055 ، هدية العارفين 1 : 805 .

19 — الصفا بتحرير الشفا للقاضي سبق ، هذا ص كشف الظنون 2 : 1079 .

وهى عبارة موهمة فهم اسماعيل باشا البغدادى منها أن « الصفا بتحرير الشفا » اسم كتاب لعياض ، فذكره له في ترجمته 1 : 805 .

وهو فهم خاطىء ، والصفا بتحرير الشفا من تأليف قطب الدين محمد بن محمد ابن الخيضرى المتوفى سنة 834 هـ . كما في كشف الظنون عند الحديث عن شروح الشفا .

20 — العيون الستة فى اخبار سبتة ، هكذا ذكره كشف الظنون 2 : 1186 ، وهدية العارفين 1 : 805 ، وتاريخ الفكر الاندلسى 283 . وانظر: الفنون الستة

21 — غريب الشهاب . ذكره كشف الظنون 2 : 1027 ، وهدية العارفين 1 : 805 .

22 — الغنية في أسماء شيوخه . ذكرها ورواها عنه ابن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه 431 ، 512 ، الاحاطة 183 — أ ، التعريف 133 ، كشف الظنون 2 : 1213 ، هدية العارفين 1 : 805 .

23 — غنية الكاتب ، وبغية الطالب في الصدور والترسيل . هكذا اورده ابنه في التعريف 133 ، والمقرى في ازهارالرياض 2 : 230 خ ، وبقية المصادر مختلفة في ايراد هذا الاسم ، ففي الكشف : « في صدور الرسائل » ، وفي الاحاطة : « ... فى الصدور والرسائل » ، وقال ابن خاتمة : كتاب في سؤالات وترسيل له ، في نحو اربعة اسفار . قال المقرى : وانظر هذا الذى قاله ابن خاتمة هل هو غنية الطالب المذكور او غيره .

24 - كتاب العقيدة. ذكره الذهبى في تذكرة الحفاظ 4 : 97، وهدية العارفن 1 : 805 . وفي فهرس دار الكتب المصرية القديم 7 : 295 : « شرح بالقول لبعض الفضلاء على عقيدة الامام الاجل القاضى عياض » .

واظن هذه العقيدة هى كتاب الاعلام بحدود قواعد الاسلام الذى مر ذكره .

25 – الفنون الستة في اخبار سبتة . هكذا سماه في الاحاطة 183 – ا ، وابنه في التعريف 133 ، والمقري في ازهار الرياض 2 : 239 خ، وهو مما لم يكمله من تآليفه ، وعبارة الاحاطة : مما تركه في المبيضة ، وانظر :

العيون الستة ، والجامع في التاريخ .

26 – القواعد ، هكذا – مجردا عن الاضافة – ذكره في هدية العارفين ، ولم يذكر غيره .

وهو ، فيما ارجح : كتاب « الاعلام بحدود قواعد الاسلام » .

27 – مسألة الاهل المشترط بينهم التزاور ، من الكتب التى تركها القاضي فى المبيضة، وذكره ابنه في التعريف 133 ، والمقرى في ازهار الرياض 2 : 239 خ .

28 – مشارق الانوار ، على صحاح الاثار ، وهو من اقوم ما خلف القاضي عياض رحمه الله، درس فيه الموطأ ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم : عمد الى كلمات المتن واسماء الاماكن ، والرجال وكناهم والقابهم ، فرتب كل ذلك على حروف المعجم ، ثم شرع في عمله ، فضبط متونها وصححها على الاصول ، ونبه على رواياتها المختلفة ، واشار الى الصواب او الارجح منها، اعتمادا على المقارنة بين الروايات ، ومتون اللغة ، واستفادة من دراسات السلف التى سبقته ، واعتمادا ، بعد هذا كله ، على استقصائه وكثرة بحثه .

ثم افرد فصلا لاسماء الامكنة فضبطها ، وكذلك فعل في الاسماء والالقاب والكنى والانساب الواردة في اسانيد هذه الكتب الثلاثة المذكورة ، وعاد فعرض الى ما وقع في كل فصل من هذه الفصول من تصحيف وتحريف يقومه وينبه على الصواب فيه ، وختم هذا العمل المعجز بشرح وجيز لغريب كلمات الكتب الثلاثة .

وقد ترك هذا الكتاب في مبيضته ، ووصف خط القاضى فيه بانه غاية في التشبيج ، (والتشبيج التعمية فى الخط) والادماج والاشكال واهمال الحروف، وجاء الحافظ المحدث ابو عبد الله محمد بن سعيد الغرناطى المعروف بالطراز ، فجمع اصولا وامهات حافلة من كتب الغريب واللغة ، واستعان بها على اخراج نص هذا الكتاب من مسودته .

وذكره ابنه في التعريف 133 ، وعنه الاحاطة 183 ـــ ا ، والمقرى في ازهار الرياض 2 : 239 خ وقدروه ستة اجزاء ضخمة . وابن خلكان 1 : 496 ، وكشف الظنون 2 : 1687 ، وهدية العارفين 1 : 805 . وقدطبعه السلطان المولى عبد الحفيظ بفاس سنة 1328 هـ .

29 — مطامح الافهام في شرح الاحكام. ذكره في كشف الظنون 2 : 1718 ، وهدية العارفين 1 : 805 .

30 — المعجم في ذكر ابى على الصدفى واخباره وشيوخه واخبارهم ، وهو يتضمن نحو المائتي شيخ . ذكره القاضى عياض نفسه في الغنية 123 ، وابنه في التعريف 133 ، والاحاطة 183 — ا .

31 — المقاصد الحسان فيما يلزم الانسان . من الكتب التى لم يكملها ، قال ابن خاتمة: انه في سفرين . ذكره ابنه 133 ، الاحاطة 183 — ا ، ازهار الرياض 2 : 238 خ ، وقد تركه فى المبيضة ايضا ، وهو فى جزء .

32 — نظم البرهان على صحة جزم الاذان . ذكره ابنه 133 ، الاحاطة 183 — ا ، ازهار الرياض 2 : 239 خ ، كشف الظنون 1 : 1961 ، هدية العارفين 1 : 805.

أما ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك « لمعرفة أعلام مَذْهب مالك »، فقد قدره ابنه ، وعنه ابن الخطيب ، والمقّري ، بخمسة أسفار .

وهناك ظواهر يلحظها القارئ لنسخ هذا الكتاب الخطية ، تلح فى إيجاد تفسير لها ، يمكن اجمالها فيما يلي :

1 — اختلاف النسخ في عدد أجزاء الكتاب ، ونعنى الاجزاء التي نظن أن المؤلف جزّء إليها كتابه ، وهى أجزاء يدل الموجود منها على أنه كان يبتديء كل جزء منها بالبسملَة والتصلية ، وينهيه بالتنصيص على نهاية الجزء .

ولم تلتزم النسخ التي بيدنا — بصورة دائمة — النص على بداية كل جزء ونهايته على الصورة التي ذكرناها ، بل تركته أكثر مما عُنيت بذكره.

2 — كثرة الفروق بين النسخ في الكلمات والجمل بلغت حداً يدعو إلى البحث عن الوجه فيه ؛ بل وصل الامر فيها في بعض الاحيان إلى أن كانت لكل نسخة روايتها التي لا تشارك فيها غيرها من النسخ .

3 — الاختلاف بين النسخ في ترتيب التراجم ، تقديما وتأخيراً .

4 — تكرار التراجم ، بحيث ترد ترجمة الشخص الواحد في مكانين.

وهى مظاهر لا بد أن يكون وراءها ما أنتجها .

وقد اتفقت المصادر المعتد بها في ترجمة عياض — على أنه لم يُسمِع كتاب « ترتيب المدارك » في حياته لاحد من الناس ، وهى إشارة فيها — فيما نظن — التفسير لهذه الاختلافات ؛ فهي على كل حال تعنى

أن الكتاب لم يقرأه الناس على مؤلفه فتتحدّد عند قراءته — بصورة علنية ونهائية — أجزاؤه ، وتتحد — بشكل جماعى — النّسَخ المسموعة منه على متن واحد ، وعلى ترتيب واحد ، وتحذف منه التراجم المتكررة .

لم يسمع الكتاب ، بل ظل في مسودة المؤلف ،[78] إلى أن تداولته أيادي النساخ ، فأخرجوه من المسودة باجتهادهم .

ووصف خط عياض عند الحديث على مسوّدة « مشارق الانوار » من تأليفه ، فقيل : إنه « في أنهَى درجات التثبيج[79] والإدماج والإشكال وإهمال الحروف[80] » .

وهي صفات وسعت المجال للاجتهاد ، فولدت المظاهر التي سبق الحديث عنها.

ومهما كان الامر فقد حدث الاختلاف ، وكان له أثره في عملنا في نشر الكتاب ، فقد أرغمنا ، إزاء ذلك ، أن نستكثر من النسخ بغية الوصول — أو المقاربة — إلى درجة الاطمئنان .

وكان علينا أن نختار من الفروق ما تتحقق دلالته على معنى صحيح ، غير أنا آثارنا أن نضع بين يدي القاريء كلّ ، أو جُلّ ، الفروق ليكون له أن يختار ، إذا وجَب عليه أن يختار ، ولم نجتهد إلا في اختيار النص الذي أثبتناه ، فهو — حسب اجتهادنا — النص المرجّح ، وما وُضع من

---

(78) كانت هذه المسودة التي بخط المؤلف عند النبـاهي ، وقد أشار اليها مرات في « المرقبـة العليا »

(79) التثبيج : التعمية وعدم البيان في الخـــط .

(80) الديبـاج 292 .

الروايات في أسفل المتن بين الفروق نَصٌ مرجوح ، في أغلب الاحيان .

وقد اعتمدنا في تقويم هذا الجزء على النسخ التالية :

أ — نسخة تحتفظ بها الخزانة الملكية ، وهي نسخة جيدة .

وقد التزمنا ترقيم صفحاتها ، فالأرقام المحصورة بين قوسين عن يسار المتن أو يمينه ، تشير إلى صفحات هذه المخطوطة ، وكذلك أرقام فهرس الموضوعات.

ب — نسخة محفوظة بالخزانة العامة تحت رقم 2634 – D .

ت — نسخة خاصة بمكتبتنا .

خ — نسخة خاصة بمكتبتنا أيضا .

ط — نسخة محفوظة بالخزانة العامة أيضا تحت رقم 2635 – D .

ك — نسخة محفوظة بالخزانة العامة تحت رقم 2633 – D .

وقد أغنانا القاضي عياض — بما بيّنه في مقدمة ترتيب المدارك ، عن الحديث عن منهجه في التأليف ، وتمثله للأصول العلمية المقررة في عهده وتطبيقها ، واستيفاء المراجع ونقدها — عن تكرار الحديث في ذلك؛ فهو أفصح منا لساناً في التعبير عن عمله .

❀ ❀ ❀

وبعد

فلأبي الفضل عياض ، ولكتبه مكانة خاصة في نفوس الأسرة العلوية المالكة منذ القديم ؛ فالمغفور له السلطان مولاي محمد بن عبد الله كان

شديد العناية بكتب عياض ، يقرأها ويطلع على خفاياها ، وينقد ما لا يروقه منها ؛ لقد أمر جمعا من العلماء أن يشرحوا مشارق الانوار للصاغاني فشرح الشيخ التاودي ابن سودة الثلث الاول منه ، وكان على الشيخ عبد القادر بوخريص — حسب الامر السلطاني — أن يشرح الثلث الثاني ، فكان السلطان مولاي محمد بن عبد الله يدل الشيخ على المراجع والمآخذ ، وكان من بينها شرح عياض على صحيح مسلم [81] .

وعنى بقراءة كتاب الشفا ، ولم تعجبه التفاصيل واستقصاء الجزئيات في قسم « حكم من سب رسول الله ﷺ » ، فانتقد عياضا ، وبعث بانتقاداته إلى علماء مصر يسألهم رأيهم ، فأجابه من علماء الازهر الشيخ الامير والشيخ عبد المعطى الحريري ، يؤيدان وجهة نظره .

والسلطان مولاي عبد العزيز — قدس الله روحه — أنشأ قراءة الشفا للقاضي عياض في الضريح الإدريسي بفاس عند شروق كل يوم ، وعين لذلك جماعة من جلة العلماء ، وخصص لكل واحد منهم راتبا يوميا لقاء القيام بعمله [82] .

وعناية السلطان مولاى عبد الحفيظ — أسكنه الله دار رضوانه — بعياض معروفة ؛ فقد طبع على نفقته كتابه «مشارق الانوار» ، وعزم على طبع «ترتيب المدارك» بمصر ، فعهد إلى وكيل الدولة المغربية بها إذ ذاك ، الحاج محمد بن العباس ابن شقرون أن يطبعه ضمن المجموعة القيمة

---

(81) الدرر الفاخرة 55. 59.

(82) الدرر الفاخرة 111 .

من الكتب التي طبعها جلالته على نفقته ، هنـاك وبالمغرب،وأرسل له النُّسَخ الخطية ليشرع في العمل ، غير أن مانعاً من الموانع حال دون ذلك .

وفي سنة 1330 ه بدأ مولاى عبد الحفيظ بطبع ترتيب المدارك بفاس على نفقته أيضا ، فطبعت منه ست عشرة صحيفة ، ثم حال حائل دون الاستمرار في الطبع .

وفي أيام الاحتفال بالذكرى الالفية لجامعة القرويين ، حدثني بعض المقربين إلى حضرة صاحب الجلالة الملك الخالد الذكر ، مولانا محمد الخامس- أنـزله الله مقعد الصّدق عنده — أن جلالته قد عزم على طبع « ترتيب المدارك » ، وأنه أمر بجمع نُسَخِه لهذا الفرض ، غير أن هذه الامنية الغالية لم يكتب لها حينذاك أن تتحقق .

وهكذا ظلت العناية بترتيب المدارك عهدا يتوارثه ملوك هذه الأسرة العلوية الكريمة الاماجد لاحقٌ عن سابق ، حرصاً منهم جميعا على إحياء مجد هذه الامة ، والحفاظ على مقدّساتها .

وأبت الاقدار الالهية — حين حالت مراراً دون أن تتحقق رغباتهم الكريمة ، وحين اختارت لتفقيذها وتحقيقها حضرة صاحب الجلالة مولانا أمير المؤمنين الحسن الثاني ، نصره الله — إلا أن تَقرِن هذه المأثرة العلمية الخالدة بعهده ، وتكتب هذه الحسنة المقبولة في صحفه .

فلقد أمر جلالة الملك — حياه الله وأيده — بطبع ترتيب المدارك ،

وتكرم بالإذن في الاستفادة من نسخة منه تحتفظ بها الخزانة الملكية، وواصل جلالته اهتمامه بانجاز العمل فيه منذ بدايته إلى نهايته .

ففي نور هديه الرشيد سار العمل ، وإلى جلالته – بدءاً وختاماً – يعود الفضل في إخراج هذا الجزء من « ترتيب المدارك » .

ووزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية يسعدها أن ترفع لجلالة العاهل العظيم الجوهرة الثانية من كنوز القاضي عياض ، وهي بمناسبة ذلك ترجو أن يسدد الله – جلت قدرته – خطاه ويرعاه ، حتى يصل بأمته إلى المكان الذى يليق بها وبأمجادها ، وأن يقر عينه الكريمة بولى عهده ويحفظه فيه ، فهو – جل جلاله – ولى الاجابة المتفضل بها .

وقسم التأليف والترجمة والنشر بهذه الوزارة يرى لزاما عليه أن يسجل لمعالى السيد الوزير الحاج أحمد بركاش شكره الجزيل إزاء ما يلقاه من معاليه من تشجيع واهتمام دَائمَيْن ؛ فالله الكريم يجزيه على عمله أحسن الجزاء .

أما أنا فقد بذلت ، وحسبى أننى بذلت ، ما في وسعى فإن أصبت فبتوفيق ربّى ، وإن كانت الاخرى فلى أجر ما اجتهدت . والله يهدينى للتى هى أقوم .

محمد بن تاويت الطنجي

الرباط 17 شوال عام 1384 هـ
موافق 19 فبراير سنة 1965 م

وهذه لائحة بمراجع ترجمة القاضي عياض ، أثبتها هنا لعلما أن تفيد من يريد التوسع في تاريخه .

فقد أفرده بالتأليف :

I ـ أبنه أبو عبد الله محمد بن عياض ، (I) قاضي دانية المتوفى سنة 575 . فعرف به ، وجمع اخباره ، وذكر شيئا من اشعاره ، واحصى تآليفه وذكر شيوخه ـ في مجلدة متوسطة الحجم .

وأكثر من ترجموا للقاضي بعد ابنه كان هذا الكتاب عمدتهم ، وقد اشرنا اليه في الحواشي باسم « التعريف » . واعتمدنا على النسخة المحفوظة بالخزانة العامة تحت رقم (553 . ك) .

2 ـ وأبو العباس المقري : أحمد بن محمد المتوفي سنة I04I هـ في كتابه : « أزهار الرياض » ، والاخبار التي تخص القاضي عياضا فيما طبع من أزهار الرياض ـ في الجزء الاول صحيفة 23 ـ 29 ، والثالث صحيفة I6 ـ 2I ، 59 ـ 64 ، 95 ـ I0I ، I49 ـ I67 ، 282 .

وترجم له من المغاربة :

3 ـ الضبي احمد بن يحيى بن احمد بن عميرة القرطبي ، في بغية الملتمس ، في تاريخ رجال اهل الاندلس (مدريد I882 ـ I883 م) ، رقم I296 .

4 ـ ابن الابار ، محمد بن عبد الله بن ابي بكر البلنسي ، في المعجم في اصحاب ابي علي الصدفي (مدريد I885م) ، رقم 279 .

5 ـ الفتح بن خاقان ، في قلائد العقيان 222 (بولاق I283 هـ) .

6 ـ ابن بشكوال ابو القاسم بن خلف بن عبد الملك القرطبي ، في « الصلة في تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم (مدريد I883 ـ I892 م) رقم 972 .

7 ـ ابن صعد التلمساني محمد بن أحمد ، في « النجم الثاقب ، فيما لاولياء الله من مفاخر المناقب » ، واعتمدنا على نسخة الخزانة العامة (رقم I992 ، ك) .

(I) جاء في المرقبة العليا للنباهي ص I0I ، وعنه المقري في ازهار الرياض 3/I7 ـ « ... ذكر ذلك حفيده في الجزء الذي صنفه في التعريف به وبتواليفه » . فنسب هذا التعريف لحفيد القاضي وكأنه تصحيف ، ولم يتنبه له المقري عند نقله .

8 ـ **النباهي** علي بن عبـد الله بن محمد الجذامي ، في « المرقبة العليا ، فيمن يستحق القضاء والفتيا » (القاهرة 1948 م) ص 101 .
9 ـ ابن القاضي أحمد بن محمد بـن أبي العافية ، في « جذوة الاقتباس ، فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس » (فاس 1309هـ) ص 277 .
10 ـ ابن الخطيب محمد بن عبـد الله بـن محمد ، في « الاحاطة في اخبار غرناطة » (مصورة الخزانة العامة رقم 1707 ـ D) لوح 180 ب ـ 183 ب .
11 ـ الكتاني محمد بن جعفر بـن ادريس المتوفي سنة 1345 هـ في « سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس » (فاس 1316هـ) 151/1 .
12 ـ الكتاني عبد الحي بن عبـد الكبير المتوفي سنة 1382 هـ ، في « فهرس الفهارس » ، (فاس 1346 هـ) 183/2 .
13 ـ الافراني محمد الصغير ، في « درر الحجال ، في سبعة رجال ،
14 ـ الناصري ، احمد بن خالد ، في « الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى 141/1 ، 145 .
15 ـ محمد بن محمد مخلوف التونسي ، في « شجرة النور الزكية » (القاهرة 1349 هـ) ص 140 ـ 141 .
16 ـ العباس بن ابراهيم المراكشي ، في « اظهار الكمال في تتميم مناقب أولياء مراكش سبعة رجال » ، 81/1 ـ 118 .

ومن المشارقة :

17 ـ ابن خلكان احمد بن محمد بن ابراهيم ، في « وفيات الاعيان ، وأنباء أبناء الزمان ، مما ثبت بالنقل أو السماع وأثبته العيان » ، (بولاق 1275 هـ) ، 496/1 .
18 ـ الذهبي محمد بن احمد بـن عثمان بـن قايماز ، في « تذكرة الحفاظ » (حيدرآباد 1333 ـ 1334 هـ) 96/4 ـ 99 .
19 ـ الذهبي محمد بـن احمد بـن عثمان بـن قايماز ، في « دول الاسلام » (حيد رآباد 1364 هـ) 44/2 .
20 ـ ابن كثير أسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي . في « البداية والنهاية » 225/12 .
21 ـ أبو الفداء اسماعيل صاحب حماة ، في « الخبر عن البشر » ، (استانبول 1286 هـ) 23/3 .

22 ـ ابن فرحون ابراهيم علي بن محمد اليعمري المدني ، في « الديباج المذهب » (القاهرة 1351 هـ) ص 168 .

23 ـ طاش كبري زاده ، احمد بن مصطفى المتوفي سنة 962 هـ في « مفتاح السعادة » 19/2 .

24 ـ ابن العماد الحنبلي عبد الحي بن احمد بن محمد أبو الفلاح ، في « شذرات الذهب ، في اخبار من ذهب »(القاهرة 1950 هـ) 138/4 ـ 139 .

25 ـ الخوانساري الميرزا محمد باقر الموسوي ، في « روضات الجنات » في أحوال العلماء والسادات » ، (طهران 1367 هـ) ص 484 .

26 ـ مرتضى الزبيدي ، في « تاج العروس » (حصب) .

27 ـ على القاري ، علي بن سلطان الهروي المتوفي سنة 1014 هـ في مقدمة شرح الشفا 2/1 (استانبول 1316 هـ) .

28 ـ يوسف اليان سركيس ، في « معجم المطبوعات العربية والمعربة » ، 1397/2 ، وصحف في تاريخ ميلاده فجعله 496 هـ وصوابه 476 هـ .

30 ـ دائرة المعارف الاسلامية (مادة عياض)

31 ـ اسماعيل باشا البغدادي في « هدية العارفين » ، واخطأ في نسبة بعض الكتب اليه ، وقد أشرنا الى الصواب فيها عندما ذكرنا مؤلفات القاضي .